راث الإنسانية

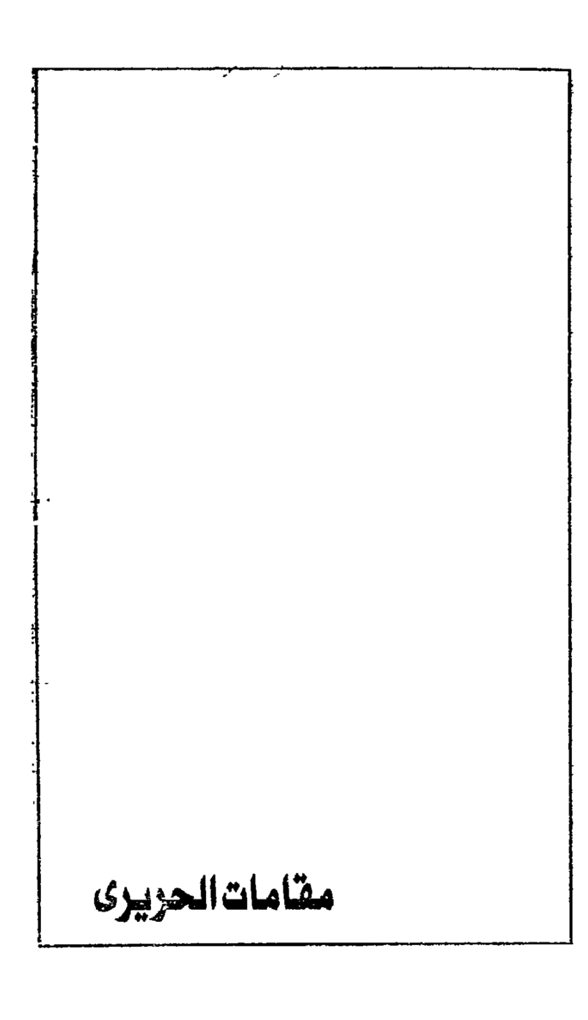
مقامات الحريرى



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د . محمود حجازى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤



مقامات الحريري

مقامات الحريرى

د . محمود حجازى



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

مقامات الحريرى

د . محمود حجازى

أقســـم بالله وآيـــاته
ومشـــعر الحج وميقـاته
أن الحريرى حـــرى بأن
تكتب بالتبـــر آيـــاته

الزمخشرى

أولا : الحريرى : ثقافته ومؤلفاته :

ينعقد الـــرأى فى كتب الأدب والطبقات والتراجم العربية ، التى وصلت الينا ، على أن أبا محمد القاسم بن محمد الحريرى (٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ) مؤلف ذكى تقدم بفن المقـامة بعد ظهوره على يد بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ) فبلغ به أوجه الفنى · وقد أفرد كل من العماد الأصفهانى فى « الخريدة » ، وياقوت الحموى فى « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » ، وكذلك ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، صفحات كاملة للحديث عن ذكاء الحريرى وشهرة المقامات وأسلوبه فى رســائله · لقد

ترجمت عشرات الكتب للحريرى وأهتـــم أصـــحابها به اهتماما بعيدا · وحسبنا هنا أن نشير الى ترجمتين هامتين ألفتا عن الحريرى ، الأولى فى كتاب ياقوت الحمـوى : ارشاد الاريب الى معرفة الأديب ، والثانية فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان · جمع ياقوت فى ترجمته كثيرا من الأخبار حول الحريرى ومقاماته وتأليفها ومكانتها ، استقاها من كثير من المصادر المدونة أو الروايات المتناقلة ، وكان ياقوت يفرق فى وضوح بين المصادر التحريرية التى يقدم لها بقوله : « قرأت بخط ·· » (٢٢٦/١٦) ، أو : « قرأت فى كتاب ··· » (٢٦٩/١٦) ، أو : « نقلت من خط ·· » (٢٧٣/١٦) ، وبين الروايات الشفوية التى تبدأ بعبارة مثـل : « حدثنى من أثق به ·· » ، أو : « حدثنى أبو عبد الله ·· الدبيثى » (١٦/ ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) · وفوق هذا وذاك فقد ضمت ترجمة الحريرى عند ياقوت عددا من الرسائل التى دبجها الحريرى ، وأرسلها الى سديد الدولة ، والى ابن التلميذ ، والمؤيد بن اسماعيل الطغرائى ، كمـــا جاء ياقوت كذلك فى هذه الترجمة بالرسالتين المشهورتين السينية والشينية ، وكلتاهما من

(★) انظر حول مصادر ترجمة الحريرى :

الثبت البيلوجرافى القيم الذى أعده الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم فى تعليقاته على ترجمة الحريرى الواردة فى كتاب : « أنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطى ، ٣ : ٢٣ القاهرة ١٩٥٥ وقد ذكر حوالى عشرين كتابا وردت بها أخبار عن الحريرى ·

رسائل الحريرى ، ولذا يعتبر كتاب ياقوت الحموى من أهم المصادر لدراسة الحريرى . أما ابن خلكان فقد أفرد للحريرى ترجمة موجزة أخذ مادتها عن الخريدة للعماد الأصفهانى وانباه الرواة للقفطى والذيل للسمعانى ، وأخذت كذلك عن الجواليقى ، وبجانب هذا فقد اطلع ابن خلكان نفسه على عدد من نسخ المقامات المكتوبة بخط مؤلفها نفسه وعلى شروح ألفت عليها ، مما جعل لملاحظاته أهمية فى دراسة ظروف تأليف المقامات وأهدائها .

...

وفى العصر الحديث اهتم المستشرقون بالحريرى ومقاماته فى وقت مبكر نسبيا ، وشغل المستشرق الفرنسى المعروف دى ساس بالحريرى ومقاماته ، فنشر بعضها سنة ١٨٠٦ ، ثم قام بجهد مشهور فى نشر المقامات وشرحها ، وطبع هذا العمل سنة ١٨٢٢ . وما لبثت المقامات ان طبعت طبعة ثانية فى مجلدين بين عامى ١٨٤٧ ــ ١٨٥٣ . وأتاح طبع المقامات فى أوربا مجال الاشتغال بها بين دارسى الأدب العربى فى الجامعات الأوربية ، فترجمها برستون الى اللغة الانجليزية (٣) ، ثم نشر ديلاتر دراسة باللغة الفرنسية عن

---

(٢) Sacy, de : Chrestomatie Arabe, Paris, 1809.

(٣) وقد جعل دى ساس لهذا الكتاب عنوانا عربيا هو : كتاب الانس المفيد للطالب المستفيد .

Preston : Makamat or rethorical anecdotes, translation with annotations, London, 1850.

الحريرى وكتاباته (٤) ، وقبل أن ينتهى القرن التاسع عشر كانت المقامات قد نشرت مرة أخـــرى فى أوربا مع تعليقـــات نحـــوية ونقـــدية وتاريخيـــة للمستشرق شتاينجاس (٥) • ومع بداية البحث العلمى فى الجامعات العربية بدأ الاهتمام بالحريرى ومقاماته وكتب عنها كثير من الباحثين ، فبحثت المقامات ضمن الاطار (النثرى) العام أو كفن أدبى لتميز ، نجد هذا مثلا عند الدكتور شوقى ضيف فى كتابيه : « الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، و « المقامة » •

ولد أبو محمد ، القاسم بن على ، الحريرى صاحب المقامات فى بلد قريب من البصرة ، ونشأ بها ، ثم سكن البصرة (ياقوت ١٦/ ٢٦١) ، ولا تمدنا المصادر بتفصيلات ذات قيمة عن حياته المبكرة ، أو عن نشأته وثقافته ومكانته العلمية ، بيد أنها تتفق على حدة ذكائه وأهمية مقاماته ، يقول العماد الاصفهانى فى الخريدة : « طلعت ذكاء ذكائه فى المغرب والمشرق ، وامتلأ ببضائع فوائده ونواصـــع فرائده المشئم والمعرق » • ويقول ياقوت الحموى فى ارشاد

---

(٤) Delatre : Hariri, sa vie et ses écrits. La Revue Orientale, Paris, 1853.

(٥) Steingass : Hariris Assemblies, Arabic text with English notes, grammatical, critical and historical, London, 1897-8.

الأريب : « وكان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة، وله تصانيف تشهد بفضله وتقر بنبله ، وكفاه شاهدا كتاب المقامات التي أبر بها على الأوائل وأعجز الأواخر » . ويقول ابن خلكان في وفيات الأعيان : « ان الحريري رزق الخطوة التامة بعمل المقامات ، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها ومن عرفها حق معرفتها استدل على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته » . ومثل هذه العبارات كثير في كتب الطبقات التي ترجمت للحريري .

غير أننا نقف قليلا عند عبارة موجزة جاء بها ياقوت وهو يتحدث عن الحريري فقال انه قرأ « الأدب » على أبي القاسم الفضل بن محمد القصباني ، وهذا الفضل شخصية مغمورة يبدو أن تتلمذ الحريري عليها هو ما أتاح لصاحبها أن يدخل التاريخ ولكننا نستطيع أن نتعرف على ثقافة الحريري اذا نظرنا في مؤلفاته ، فله المقامات ، وله في النحو واللغة ، وله عدة رسائل . وهذه النقط العامة تتيح لنا في ضوء ما وصلنا من معلومات عن الحياة الثقافية في عصر الحريري أن نحدد معالم الاطار الثقافي العام الذي تكونت بداخله معارف الحريري . كانت الدولة الاسلامية قد عرفت ـ بصفة عامة ـ اطارين ثقافيين متميزين يدخل فيهما أكثر المسهمين في الحياة الثقافية والفكرية والعلمية ، فالبيئة الأولى كانت تهتم أساسا بعلوم العربية وبالدراسات

الاسلامية مع خلاف فى نقط التركيز والاهتمام ، بينما عرفت البيئة الثانية اهتماما بالعلوم الفلسفية والمنطق والفلك والرياضيات والطب مع خلاف كذلك فى نقاط التركيز والتأليف . صحيح أن كثيرين قد استفادوا من الفلسفة أو المنطق فى دراسة المادة العربية أو الاسلامية المأثورة ، وصحيح أن أصحاب المنطق والفلسفة كانوا يعرفون قدرا من النحو ، ولكن الحد الفاصل بين البيئتين الثقافيتين ظل قائما ، وكثيرا ما احتدم النقاش فى القرن الرابع والقرون التالية بين هؤلاء وأولئك ، لعل موقف السيرافى النحوى (ت ٣٦٨ هـ) ـ ممثل الثقافة العربية الاسلامية ـ من الثقافة اليونانية بمنطقها وفلسفتها ومما يقول به ممثلها متى بن يونس القنائى ، مثال واضح على وجود البيئتين الثقافيتين متوازيتين . ليس القاسم بن محمد الحريرى من أصحاب المنطق أو الفلسفة أو الطب ، بل هو ممن ثقفوا العلوم العربية من نحو ولغة وأدب وما يرتبط بهذا وذاك من ثقافة قرآنية ومعرفة بأيام العرب وأمثالها .. وكل هذه العلوم وصفها اللغوى العربى ابن الأنبارى (ت ٥٧٧ هـ) فى كتابه : « نزهة الالبا فى طبقات الأدبا » ، بأنها هى « علوم الأدب » ، وتضم هذه العلوم المجالات الآتية : النحو ، واللغة ، والتصريف ، والعروض ، والقوافى ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم .

واذا نظرنا في مؤلفات الحريرى ، وجـــدناه فى المقامات أيضا ـ يصدر عن معرفة عميقة بهذه العلوم الأدبية ، فهو لا يكتفى فى النحو بما يقيم العبارة ، بل يفرد للقضايا النحوية مقامة كاملة ، وهو لا يكتفى فى الفقه بما يحتاجه المسلم فى سلوكه وتفاصيله وتعامله ، ولكنه يتجاوز هذا الى تأليف مقامتين تضمان عددا من القضايا الفقهية • وهو لا يقنع باللفظ السهل أو الجزل المعبر فى يسر وسلاسة .

وهل كان ذلك جائزا فى ذوق القرن الخامس الهجرى ؟ لقد كانت الفكرة القائلة بأن الأجيال الســـابقة قد أبدعت واجتهدت وحددت اطار البراعة فى التعبير والاجادة فيه ـ تيارا سائدا ، كانت الأجيال السابقة قد خلقت عددا من الأساليب الفنية فى التعبير وأعجبت بها فسعت اليها ، ولكنها كانت فى عصر الحريرى ثم أصبحت هدفا فى ذاته • كانت هذه الأســـاليب التى نمت على مر الأجيال ، قد تحولت فى عصر الحريرى الى تقاليد تعبيرية راسخة ينشدها كل من أراد تعبيرا يسمو على مستوى الحاجات اليومية المتغيرة • كان الفكر ـ فى رأيهم ـ قد آتى قمة ثماره ، فتركزت جهودهم فى اجادة التعبير والبراعة فى ذلك ، وفى تعقيد ذلك بكل الوسائل المتاحة • فكان تراكم السجع والجناس والطباق دليل البراعة ، وكان تصـــنع العلوم واثارة القضايا العلمية فى الكتابة النثرية الفنية شاهدا على الثقافة والمعرفة ، وما القضايا العلمية التى يمكن أن نثيرها أحد ممثلى الثقافة العربية الاســـلامية كالحريرى

الا قضايا النحو واللغة والفقه ، فما أبعده عن قضايا المنطق والرياضيات والفلسفة ، وجوانب ثقافته هذه واضحة فى مقاماته حق الوضوح ٠

ذكرت ياقـــوت (٢٧١/١٦) أن الحريرى صنف الكتب الآتية :

١ ـ المقـــامات ٠

٢ ـ درة الغواص فى أوهام الخواص ٠

٣ ـ ملحـــة الاعراب ٠

٤ ـ شرح ملحة الاعراب ٠

٥ ـ رســـائله المدونة ٠

٦ ـ شـــعره ٠

ولم تستدرك كتب الطبقات التالية لياقوت شـيئا جديدا أضافته الى قائمة مؤلفات الحريرى (أنظر مثلا انباه الرواة ٢٥/٣) ٠

وليس من الصعب أن ترتب هذه المؤلفـــات ترتيبا تاريخيا ، وذلك اعتمادا على النصوص الواردة للحريرى وعن الحريرى فى ارشاد الأريب لياقوت الحموى ٠ يذكر ياقوت أن ابن التلميذ كتب الى الحريرى « فى سنة خمس

وتسعين وأربعمائة عند ابتدائه عمل المقامات » ، ثم ذكر بعد ذلك أنه « وقع الاجتماع به فى سنة أربع وخمسمائة ببغداد » وأنه كان قد « ســـمعها منه عـــدة دفعات » (٢٨٣/١٦) . وعلى أساس هذا النص نستطيع أن نقول أن الحريرى ألف مقاماته بين عامى ٤٩٥ هـ ، ٥٠٤ ، ويؤكد مارجوليوث هذا الرأى فى دائرة المعارف الاسلامية مستشهدا على صحته كذلك بأن الحريرى أشار الى دخول الصليبيين لسروج ، أى أن المقامات ألفت بعد هذا الحادث الذى وقع سنة ٤٩٠ هـ ، وهكذا نستطيع أن نقول ان المقامات تمت فى تسع سنوات من حياة الحريرى .

هذا ويذكر ابن التلميذ نفسه أنه طلب من الحريرى عقب سماعه للمقامات عليه « أن ينظم فى النحو مختصرا يحفظه المبتدئون ، فشرع فى نظم هذه الأرجوزة ، ثم يقول ابن التلميذ : « وأملى على منها أبوابا يسيرة ، وانحدر من غير اتمامها واســتعاد منى ما أملاه ليحرره فكاتبته دفعات اقتضيته بها : (= أطالبه بها) وأذكره بانفاذها وانفاذ كتابه : درة الغواص فى أوهام الخواص » (٢٨٤/١٦) . نخرج من هذا النص بأن المقامات سابقة على الملحة تأليفا ، وفوق هذا فيبدو لنا من رد الحريرى عليه أن الملحة لم تؤلف دفعة واحدة ، يقول الحريرى : « أما الملحة ان أمكن تنفيذها (= ارسالها) مع أحد المترددين الى هذا المكان لالحق بها الزيادة وأهذبها كما يطابق الارادة فأوعز به ، وأما درة

الغواص فى أوهام الخواص فأرجو أن ينشى الاصعاد الى بغداد لتصفحها من البدء ، وكأن قد ... نسخة الكتاب الثاني هو المنفذ مع الملحة المذكورة » (١٦/٢٨٥) . وهكذا يتضح لنا أن ملحة الاعراب ودرة الغواص قد ألفتا بعد المقامات . أما شرح ملحة الاعراب فلا شك أنه ألف بعد الملحة نفسها . تبقى بعد هذا من مؤلفات الحريرى رسائله المدونة وديوان شعره ، وهذه وهذا من نتاج قلمه على مر السنين ، ومن الصعب وضعها قبل أو بعد مؤلفاته الأخرى . وعلى كل حال فقد بقيت هذه المؤلفات كلها بصورة كاملة أو بصورة جزئية ، وطبع قدر منها عدة طبعات ، غير أن مؤلفاته ما تزال بحاجة الى تحقيق علمى كامل يتم فى ضوء المخطوطات الكثيرة التي وصلت الينا من مؤلفات الحريرى ، ونحاول فيما يلى تقديم فكرة موجزة عن كل مؤلف من مؤلفات الحريرى .

* * *

كتاب درة الغواص فى أوهام الخواص كتاب لغوى هام ، عرفه الباحثون فى علم اللغة العربية واهتموا به كثيرا ، وطبع الكتاب عدة مرات ، حققه المستشرق الألمانى توربكه سنة ١٨٧١ ، وقدم للنص بدراسة باللغة الألمانية عن الحريرى وكتب لحن العامة ، وقد اعتمد توربكه فى هذا التحقيق على عدة مخطوطاته ، منها أقدم مخطوطات

الكتاب . وهى مخطوطة ميونيخ المعروفة المدونة سنة ٥٨٤ هجرية ، وطبع الكتـــاب فى مصر عدة مرات فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وطبع متن الدرة بالآستانة سنة ١٢٩٩ هـ • وكتاب درة الغواص فى أوهام الخواص أحد هذه الكتب الهامة التى ألفها اللغويون العرب فى لحن العامة ، وأقدم هذه الكتب كتاب لحن العامة المنســوب للكسائى (ت حوالى ١٨٩ هـ) • وقد سجل الحريرى فى درة الغواص مظاهر للاستخدام اللغوى شاعت فى عصره ، ورآها الحريرى مغايرة للنمط اللغوى القديم ، فاعتبرها من الأخطاء التى ينبغى تقويمها •

هذا ويختلف علم اللغة الحديث مع نظرة الحريرى واضرابه حول هذه الظواهر اللغوية التى جدت أهى أخطاء أم تطور ؟؟ ، ورغم هذا فلكتاب دره الغواص عند الباحثين فى تاريخ اللغة العربية أهمية كبرى ، اذ أنه يفيد كمنطق أساسى فى دراسة الاستخدام اللغوى للعربية فى العراق فى أوائل القرن السادس الهجرى • هذا وكان اللغويون القدامى قد اهتموا بالدرة اهتماما بعيدا ، فشرحت عدة شروح وتعليقات أشهرها :

١ ــ شرح الشهاب الخفاجى (ت ١٠٦٩) وقد طبع هذا الشرح سنة ١٣٠٠ هـ فى استانبول •

٢ ـ التكملة والذيل للجواليقى (ت ٥٣٩ هـ) ولم ينشر عمل الجواليقى بعد ، وما يزال مخطوطا فى المكتبة الآصفية ودار الكتب المصرية .

٣ ـ سهم الالحاظ فى وهم الألفاظ تأليف محمد ابن ابراهيم الحنبلى (ت ٩١٧ هـ) ويوجد هذا الشرح مخطوطا بدار الكتب المصرية .

٤ ـ منحة الملك الوهاب تأليف عبد الملك بن دعسين (ت ١٠٠٦ هـ) ، ويوجـــد كذلك مخطوطـــا بالمكتبة الآصـــفية .

٥ ـ تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب لجمال الدين بن عمر بحرق الحضرمى (ت ٩٣٠) ، ومنه مخطوط فى مكتبة الامبروزيانا .

وكثرة الشروح التى ألفت على درة الغواص تؤكد لنا أن الدرة هى الأساس الثانى بجانب المقامات لشهرة الحريرى ومكانته .

هذا وللحريرى مؤلفات نحوية مختلفة ، أشهرها « ملحة الاعراب » ، وهى منظومة فى النحو اهتـــم بها المستشرقون فى وقت مبكر فنشر دي ساس فى باريس سنة ١٨٢٩ (٦) ، ثم ترجمها الباحث بنتو Pinto الى

(٦) Sacy, de : Anthologie grammaticale, Paris, 1829.

اللغة الفرنسية · وتستمد ملحة الاعراب وشهرتها البعيدة من انها منظومة فى النحو ، ومنظومات العلوم ظاهرة شاعت فى العصور الوسطى ، وانتشرت فى مرحلة سادها الاقتناع بأن امكانيات العمل العلمى الخلاق قد استنفدت وأن الاتيان بعمل جديد أصيل لم يعد متاحا ، ومن ثم فقد انصرف جهد المشتغلين بالعلم الى تلخيص ما أبدعته قرائح السابقين، والى البراعة والتفنن فى عرضه عرضا جديدا يعين على دراسته وحفظه ، واجتهد كثيرون فى صب المادة العلمية وتثبيتها داخل قوالب من النظم تحمى حدودها وتمنعها من الفناء والنسيان · وهكذا ظهرت منظومات العلوم تعبيرا عن فكرة عدم امكان الخلق الأصيل ، ودليلا على براعة البارعين فى عرض المادة القديمة نظما ونثرا ، فهؤلاء قد حاولوا تيسير الحفظ والتعليم ، وأنى لهم أن يفكروا فى الاجتهاد والبحث ·

وقد أتيح للمنظومات البارعة فى النحو شراح كثيرون، ولعل الاشارة الى ألفية ابن مالك (ت ٦٧٣ هـ) وشروحها المتعددة تغنى هنا عن الاسهاب ، أما ملحة الاعراب للحريرى فسابقة على ابن مالك ، وكان اهتمام الشراح بها بعيد المدى متصل الحلقات · وأول شراح الملحة هو الحريرى نفسه ، فقد ألف عليها كتابا بعنوان شرح ملحة الاعراب ، ثم شرحها ابن مالك (مخطوطات الفاتيكان وجوتا وبرلين) ، وعلى بن محمد بن على القرشى

(ت ٨١٩) وجمال الدين الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ) وطبع هذا الشرح بالقاهرة عدة مرات ، ثم شرحها الفاكهي (ت ٩٧٢) في كشف النقاب (مخطوطات هامبورج وليدن) ، والرملي (ت ٨٤٤) ، وغيرهم ، وهكذا نالت ملحة الاعراب حظها من الشراح .

★★★

وألف الحريري في النحو كذلك قصيدة في : الفرق بين الضاد والظاء ، ضمها السيوطي في المزهر ، وما تزال توجد منها مخطوطة في برلين / توبنجن ، وينسب للحريري كذلك مخطوط آخر في برلين / توبنجن بعنوان : الفرق بين الضاد والظاء ، وقد رتبت فيه الألفاظ المتناولة ترتيبا أبجديا . وهنا نقف قليلا لنلاحظ أن الخلط بين الضاد والظاء ظاهرة موجودة في كل اللهجات العربية على مستوى الألفاظ الأساسية ، ولكن هذا الخلط حدث في اتجاهين متغايرين ، فنحن نقول في مصر (ضل) بدلا عن (ظل) ، (ضهر) بدلا عن (ظهر) ، بينما تنطق الضاد في العراق نطق الظاء ، فتسمع الضاد كما لو كانت ظاءا ، ولندرة استخدام الظاء في اللغة العربية لم يهتم النحاة في مصر بتأليف الرسائل اللغوية في الفرق بينهما ، وعلى العكس من هذا ألف النحاة واللغويون في العراق رسائل كثيرة لبيان الفرق بينهما ، واتخذت بعض مؤلفاتهم كذلك شكلا منظوما بأن نظمت الألفاظ ذات الضاد وأخرى من

ذات الظاء في منظومات تعليمية لا تتوخى ابداعا بل تلقن تلقينا ، ويبدو أن جهد الحريرى يدخل فى هذا الاطار ٠

تبقى بعد هذا من مؤلفات الحريرى رسائله وشعره ، أما رسائله فقد اشتهرت منها رسالتان أحداهما هى **الرسالة السينية** والأخرى هى الرسالة الشينية وتوجدان في مخطوطتين في ليدن وبرلين ٠ غير أن ياقوتا الحموى قد نقل لنا نص الرسالتين فى معجم الأدباء (١٦/٢٢٧ ـ ٢٧٨ ، ٢٧٨ ـ ٢٨٢) ٠ وقد التزم الحريرى فى الرسالة الأولى أن تكون كل ألفاظها بها حرف السين لا تخلو منه كلمة ، أما الشينية فلا يخلو لفظ فيها من حرف الشين ؛ وكيف لا وقد استقر فى نفوس المثقفين في عصر الحريرى أن البراعة فى التعبير هى الفيصل والمحك ، وهاهو الحريرى يثبت مقدرته اللغوية ومهارته فى السبك بمثل هذه الرسائل ٠ هذا وقد حفظ لنا العماد الاصفهانى وياقوت الحموى نصوصا نثرية أخرى تنسب للحريرى ، فنحن نجد رسالة الحريرى الى ابن التلميذ الكاتب عند ياقوت (١٦/٢٨٤ ـ ٢٨٧) ، وكذلك رسالته الأخرى اليه (١٦/٢٨٧ ـ ٢٨٩) وخطابه الى سديد الدولة (١٦/٢٨٩) ٠

أما ديوان شعر الحريرى ، فمنه مخطوط فى برلين / توبنجن يبدو أنه يضم بعض قصائد الحريرى ،

ولعل هذا يكمل الصورة التى تقدمها لنا المقامات بما تضمنه من قصائد الحقت ببعض رسائله ، فالمقامات ليست نثرا صرفا ، فالمقامة الواحدة تضم عند الحريرى نصوصا نثرية ومقطوعات شعرية ، والرسالتان المشهورتان السينية والشينية تضمان كذلك نثرا وشعرا • ورسالة الحريرى الى ابن التلميذ تبدأ ببيتين من الشعر (٢٨٧/١٦) ، وصدر رسالة الحريرى الى سديد الدولة بيتان من الشعر ياقوت (٢٨٩/١٦) ، كما أنه صدر له رسالة أخرى بستة أبيات من الشعر ، ويبدو أن استخدام الشعر فى الرسائل الفنية مع النثر كان تقليدا شائعا بين المتأدبين فى عصر الحريرى ، فابن التلميذ والطغرائى يتوسلان أيضا فى رسائلهما اليه التى ذكرها ياقوت بالنثر وبالشعر ، وعلى كل حال فدراسة القيمة الفنية لشعر الحريرى لا تتيسر الا بأن ننظر كذلك فى المقطوعات والقصائد الكثيرة التى تضمها المقامات •

ثانيا : المقامات

لعل من المفيد أن نقف قليلا عند كلمة « مقامة » ، فالمادة (ق و م) مادة سامية أصيلة تفيد القيام والاستقرار ، أما كلمة مقامة فقديمة قدم ديوان زهير وديوان لبيد ، جاءت الكلمة عندهما بالمعنى الذى ذكره لسان العرب للكلمة اذ نص على أن « المقامة بالفتح المجلس أو الجماعة من الناس » ، ويبدو أن عادة القص فى مجلس قبلى يضم

عددا من المتلقين يستمتعون بفن راو أو قصاص أو محدث يقص عليهم ويمتعهم كانت أساس التطور الدلالي الذى اكتسبته هذه الكلمة ، فهذا القصاص يقف منهم موقف الخطيب ، فهو يقوم في المجلس بالتحدث اليهم والقص لهم ، فأطلق على حديثه هذا اسم « المقامة » ، وبهذا المعنى استخدمت الكلمة عند بديع الزمان الهمذانى ، اذ سأل أحدهم من الواقف متحدثا فقيل له : « غريب قد طرأ ... فاصبر عليه حتى آخر مقامته » ــ المقامة الوعظية .

وليس استخدام كلمة المقامة تسمية لنص مدون أمرا بعيدا عن عصر بديع الزمان (٣٥٨ ــ ٣٩٨) مبدع المقامات الأولى فى الأدب العربى ، فقد ألفت فى القرن الثالث الهجرى مجموعة من الكتب تحمل اسم المقامات ، منها كتاب المقامات لأبى جعفر ، محمد عبد الله اسكافى (ت ٢٤٠) الذى نقل ابن أبى الحديد مادته فى نهج البلاغة ، ومنها مقامات القلوب لأبى الحسين أحمد بن محمد النورى (ت ٢٩٥) ــ مخطوط بتركيا . ومنها كتاب : مقامات الأولياء لأبى عبد الرحمن محمد بن الحسين الأزدرى (ت ٣٢٥) . وكل هذه الكتب ألفت باسم « المقامات » ، ومن ثم فلم يكن بعيدا عن بديع الزمان أن يطلق على كتابه اسم « المقامات » . وكلمة « مقامة » تعنى فى استخدامها عند بديع الزمان والحريرى « الحديث المرتبط بمكان » وتعنى أحيانا « الحديث البليغ المنمق » دون ارتباط

بمكان ، والواقع أن الارتباط بالمكان أمر تمليه عناوين معظم المقامات ، مثل المقامة البغدادية ، المقامة الدمشقية ، المقامة الحلبية ، المقامة السنمر قندية ، وتمليه كذلك الظلال الاشتقاقية والدلالية لمادة « قام » وكلمة « مقام » و « مقامة » على وجه الخصوص .

تبدأ مقامات الحريرى بمقدمة توضح مدى علاقته بسلفه في المقامات بديع الزمان الهمذانى ، وفيها يقول : « انه جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان رحمه الله وعزى الى أبى الفتح السكندرى نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف ، فأشار من اشارته حكم وطاعته غنم الى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وان لم يدرك الظالع شأو الضليع ... لبيت دعوته تلبية المطيع فى مطاوعته جهد المستطيع » .

ولنقف قليلا عند هذا النص لنلاحظ أن الحريرى مطالب باقتفاء أثر بديع الزمان الهمذانى ، وأنه كتبها ـ فيما يقال ـ استجابة لرغبة أحد أصحاب السلطان فى زمانه . والأمران بحاجة الى قدر من الايضاح والتوضيح . فبديع الزمان نسج مقاماته بأسلوب « الرواية » فهو يدون على لسان عيسى بن هشام ما رواه عن أبى الفتح السكندرى ،

وكلاهما ـ كما قال الحريرى ـ مجهول لا يعرف ونكرة لا نتعرف » : فهل يكون هذا العمل بمعايير الجرح والتعديل المعروفة فى علم الحديث كذبا وافتراء» ، وهل تحرج الحريرى من استخدام هذا الشكل المسند لمقاماته ؟ • ان الباحثين يربطون أيضا بين أحاديث ابن دريد التى ألفت فى شكل رواية يتقدمها سند ، وصيغت مسجوعة العبارة زاخرة باللفظ الغريب ، وبين ما عنــد بديع الزمان فى مقاماته من ســند وســجع وغريب • ومع هذا فيبدو أن استخدام الاسناد لرواية شيء لم يحدث على لسان من لم يخلقوا ، قد أثار كوامن نفس الحريرى ، فنجده فى مقدمته وكأنه يعتذر لقارئه ـ يقول : بأن البعض قد « يندد بأنه من مناهى الشرع » أو أنه من « الاثم روايتها فى وقت من الأوقات » ، ثم يقول : « اذا كانت الأعمال بالنيات وبها انعقاد العقود الدينيات ، فأى حرج على من أنشأ ملحا للتنبيه لا للتمويه ، ونحى بها منحى التهذيب لا الأكاذيب » • وعلى هذا النحو يقدم الحريرى لمقاماته بهذه العبارة وهو هياب وجل ، ولولا ارتباط السند والرواية بالعمل الجاد فى علم الحديث وغيره من العلوم الاسلامية ، لما كانت هناك ضرورة لهذه المقدمة •

هذا وقد جعل الحريرى مقاماته تقوم على شخصيتين أساسيتين هما : الرواية الحارث بن همام يروى عن البطل أبى زيد السروجى ، مقدما لكلام أبى زيد السروجى بوصف

جو المقامة وملابساتها · وقد أثار الاسمان من قديم تساؤل المؤلفين ، تساؤل ابن العماد (شذرات الذهب ٤/٥٠٠٥٣) وابن خلكان (١/٤١٩ ـ ٤٢١) · على عادة المشتغلين بعلم الرجال ـ كلما صادفوا اسما ـ عن الحارث بن همام هذا ، وكان أن اهتدوا الى أن الحريرى « انما عنى نفسه ، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره » ، وأن هذا من الحديث « كلكم حارث وكلكم همام » · واختلفت والروايات حول أبى زيد السروجى أيضا ، وكأنه اذا لم يكن قد وجد الا فى خيال الحريرى ، فلابد أن يوجد فى روايات الراوين عن البشر الحقيقيين · فياقوت روى عن شيخ « ثقة » عن الحريرى أنه قال « أبو زيد السروجى كان شيخا شحاذا بليغا ومكديا فصيحا ورد علينا البصرة ، فوقف يوما فى مسـجد بنى حرام ، فسلم ثم سأل النـاس ، وكان بعض الولاة حاضرا ، والمسجد غاص بالفضلاء ، فأعجبتهم فصاحته ، وحسن صياغته كلامه وملاحته ، وذكر اسر الروم ولده كما ذكرناه فى المقامة الحرامية وهى الثامنة والأربعون » · وفى موضع آخر يأتى ياقوت برواية معنعنة معلاة الى أحد أصدقاء الحريرى أنه عمل عن « صاحبة أبى زيد المطهر ابن سلام البصرى » (١٦/٢٧٢) ، واذا بأبى زيد السروجى يصبح عند القفطى (انباه ـ ٣ : ٢٧٦) كذلك هو المطهر بن سلام ، والواقع أن المطهر بن سلام تلميذ الحريرى الذى سمع عنه « ملحة الاعراب شخصية حقيقية ، ولكن يبدو أن فى جعله بطل المقامات شيئا من التعسف · فهذه القصة وأمثالها عند

ياقوت تعبر عن محاولة لجعل هذا البطل الأدبى شخصية حقيقية ، ولا مبرر لهذه المحاولة ، فلسنا هنا بصدد الفصل فى قضية يشترط فى رواتها وشهودها ما يشترط فيهم من العدالة والثقة ، بل الأمر لا يتجاوز أن يكون ضربا من ضروب التسلية والتثقيف ، وشأن الحريرى فى هذا شأن مؤلف كليلة ودمنة ، وفى مقدمة الحريرى اشارة واضحة الى هذا : « ومن نقد الأشياء بعين المعقول ، وأنعم النظر فى مبانى الأصول ، نظم هذه المقامات فى سلك الافادات وسلكها مسلك الموضوعات عن العجماوات والجمادات ، ولم يسمع بمن نبأ سمعه عن تلك الحكايات » • فالمقامات اذن ليست روايات يقاس صحة سندها بمعايير الجرح والتعديل ، بل هى قصة تعليمية يعرض فيها المؤلف جوانب من معرفته وبراعته • وقد عبر الحريرى عن هذا فى مقدمته للمقامات بقوله : انها « تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وعزر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف العربية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى وأسندت روايته الى الحارث بن همام البصرى » • فالمقامات اذن من صنع الحريرى وأبو زيد السروجى من نسج خياله •

ويثير ابن خلكان فى وفيات الأعيان قضية تحديد اسم ذلك الحاكم الذى كتب له الحريرى هذه المقامات ، وكان ابن الجوزى وياقوت (١٦/٣ ــ ٢٦٤) قد ذكرا أن الحريرى عرض المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان فاستحسنها ، وأمره أن يضيف اليها ما يشاكلها فأتمها خمسين مقامة « فناقش ابن خلكان هذه الرواية » ، « رأيت فى بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريرى وقد كتب أيضا بخطه على ظهرها أنه صنعها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبى الحسن على بن أبى العز بن صدقة وزير المسترشد أيضا ، ولا شك أن هذا أصبح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف » . وهنا نلاحظ أن فى نص ياقوت فيه تعبير عن اعجاب ذلك الوزير بمقامة حريرية ، وأن نص ابن خلكان يمكن أن يفهم على اعتبار أن الحريرى قد أعد للوزير جلال الدين عميد الدولة نسخة مهداة اليه . ورغم عدم اطمئناننا الى هذا التفسير ، فان الفصل فى هذا الأمر ليس بهام ، وما نهتم به هنا هو أن المقامات قد ألفت وأن مؤلفها هو الحريرى ، أما متلقوها فهم مئات الآلاف من القراء على مر التاريخ .

انتظمت فى مقامات الحريرى خمسون مقامة ، وغالبا ما ترتبط كل مقامة بمكان معين تنسب اليه ، وفى هذا يبدو أثر بديع الزمان الهمذانى ، وكان الهمذانى قد سمى

عددا من مقاماته نسبة الى أماكن بأعيانها ، وذلك مثل : البلخية ، والمقامة السجستانية ، والمقامة الكوفية ، والمقامة الآذربيجانية ، والمقامة الجرجانية ، والمقامة الأصفهانية ، والمقامة البغدادية • ثم جاء الحريرى فاقتفى أثر بديع الزمان حتى أن كثيرا من مقاماتهما تحمل نفس الأسماء جغرافية كانت أم غير جغرافية • والأخيرة مثل : (المقامة الدينارية ــ المقامة الشعرية) • ولابد أن نقف هنا لنحدد الاطار الجغرافى لخيال صاحب المقامات ، فالحريرى نسب عددا من مقاماته لأمكن فى اليمن : المقامة الصنعانية ، والمقامة الزبيدية ، والمقامة الصعدية ، والمقامة العمانية ، والمقامة النجرانية • ونسب عددا منها الى الحجاز ، مثل : المقامة المكية • وبعضها منسوب الى أماكن فى مصر ، مثل : المقامة الاسكندرية • ومنها ما هو منسوب الى الشام ، مثل : المقامة الدمشقية ، والمقامة الصورية ، والمقامة الحلبية ، وهناك مقامات نسبت للعراق ، مثل : المقامة الكوفية ، والمقامة البغدادية ، والمقامة الفراتية ، والمقامة الحرامية ، والمقامة البصرية • والى ايران وأقصى شرق الدول الاسلامية نجد نسبة المقامات : الرازية والكرجية والسمرقندية والتفليسية والشيرازية والتبريزية • والملاحظ أن كل الأماكن التى سميت بها المقامات تدخل فى اطار الدولة الاسلامية ، غير أنها جميعا فى المشرق الاسلامى ، حتى أننا لانجد المغرب العربى مذكورا الا فى مقامة واحدة هى المقامة المغربية • فكأن الحريرى وضع نفسه فى دائرة مركزها

البصرة ومحيطها عدن جنوبا وسمرقند شمالا والاسكندرية غربا وتبريز شرقا • ويبدو أن الأماكن التى نسبت اليها المقامات كانت أكثر الأماكن دورانا فى أحاديث القوم فى البصرة حيث عاش الحريرى •

ولكل هذه المقامات محور واحد عند الحريرى ، هو أبو زيد السروجى الذى قامت المقامات وصفا وعرضا لبراعته اللغوية وفطنته ، كما دارت مقامات بديع الزمان حول أبى الفتح السكندرى • ويصدق هنا وصف ياقوت لبطل المقامات التحريرية اذ يقول عنه انه « كان يغير زيه وشكله ويظهر فى فنون الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه فى ميدانه وتصرفه فى تلونه واحسانه » (٢٦٣/١٦) • والواقع أن أبا زيد السروجى يظهر فى المقامة الأولى تحقيقا لرغبة الراوى الذى ود لو قابل « أديبا تفرج رؤيته » « غمة » وتروى روايته « غلته » • فاذا هو يلتقى به ويجده « شخصا شخت الخلقة عليه أهبة السياحة ، وله رنة النياحة ، وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه • وقد احاطت به أخلاط من الزمر » (المقامة الأولى) وبعد أن ألقى مقامتــه الأولى فى الوعظ والزهد ، تابعــه الراوى « فوجدته مثافنا لتلميذ على خبز سميز وجــدى حنيذ وقبالتهما خابية نبيذ » • وفى مقامة أخرى يحــدد لنا الحريرى معالم شخصية أبى زيد قائلا : « ألفيت أبا زيد السروجى يتقلب فى قوالب الانتساب ويخبط فى أساليب

الاكتساب فيدعي تارة أنه من ساسان ويعتزى مرة الى أقيال غسان ويبرز طورا في شعار الشعراء ، ويلبس حينا كبر الكبراء ، بيد أنه مع تلون حاله وتبين محاله يتحلى برواء وروية ومداراة ودراية وبلاغة رائعة وبديهة مطاوعة » فأبو زيد يظهر في مظاهر مختلفة محاولا بذكاء وبراعة وفصاحة ولسن أن يحصل على مراده ، وقد أمتع وأفاد ، وفي المقامة الثالثة نراه يتوسل بالعرج كي يلفت اليه الأنظار ويقرب اليه الأموال فظهر « وعليه سمل وفي مشيته قزل » وبعد أن عرفه الحارث وسأله عن افتعاله العرج ، كان رد أبي زيد السروجي :

تعارجت لا رغبـــة في العرج
ولـــكن لأقرب باب الفرج
وألقي حبـــلي على غـاربي
وأســلك مســلك من قد عرج
فان لامني أحد قلت اعـــذروا
فليس على أعرج من حـــرج

وفي مقامة أخرى نرى الراوي يسمع حديثه مع ابنه في الليل فيعجب للبراعة والمهارة والفصاحة الى أن تعرف على القائل فاذا هو أبو زيد : « وجعلت استقرى صوبه الصوت الليلي وأتوسم الوجوه بالنظر الجلي الى أن لمحت أبا زيد وابنه يتحادثان وعليهما بردان رثان » (المقامة الرابعة) . وفي مقامة تالية نجد أبا زيد يظهر « شيخا في

شملتين محجوب المقلتين ، وقد اعتضد شبه المخلاة واستقاد العجوز كالسعلاه فوقف وقفة متهافت ، وحيى تحية خافت ولما فرغ من دعائه أمال خمسة في وعائه ، فأبرز منه رقاعا قد كتبت بألوان الأصباغ في أوان الفراغ فناولهن عجوزه الحيزبون وأمرها بأن تتوسم الزبون ... » (المقامة السابعة) ، فهو يظهر في تلك المقامة وكأنه قد كف بصره أو أصيب في عينيه ، وفي مقامة أخرى نراه وابنه يحتالان على القاضي كي يأخذا منه شيئا ، وبعد أن تحدثا اليه « وعى القاضي قصصهما وتبين خصاصتهما أبرز لهما دينارا من تحت مصلاة وقال لهما اقطعا به الخصام وافصلاه » ولكنهما يواصلان محاولة أخذ المزيد ، فلا يملك القاضي الا أنه « جبر بال الفتي بدريهمات رضخ بها له » (المقامة الثامنة) . ونراه في المقامة الثانية عشرة يظهر في « ميسم الشبان ولبوسه لبوس الرهبان وبيده سبحة النسوان وفي عينيه ترجمة النشوان » وبعد أن أبدع ناثرا وناظما عرفه الراوى أنه أبو زيد . وهكذا يظهر أبو زيد في أشكال متعددة ، وهو دائما يخلب الألباب ببيانه وبشعره . وشخصية أبي زيد هي محور المقامات حتى أنه لا تظهر بجوارها الا شخصية الراوى ، وهو يصف المجلس ، أو يصف أبا زيد ، أو يمهد لفقرة نثرية أو لمقطوعة نثرية بعبارات ربط دقيقة ، وما أن يأتي دور أبي زيد حتى يأخذ بالألباب براعة وظرفا وجزالة وبيانا . والمقامات الحريرية لا تعرف الا هاتين الشخصيتين ، وهما يظهران مع عدد من

القوم لم يسم الحريرى أسماءهم ، ولم يأت بهم الا ليشعرنا أن هذه النصوص الرائعة قد ألقيت فى مجلس فنالت الاعجاب واستحقت الثناء .

هذا ولا تدور المقامات كلها حول الكدية بالفصاحة واللسن ، ولكن بعضها يتوسل بموضوعات علمية ، فالمقامة القطيعية (الرابعة والعشرون) تتناول قضايا نحوية . والمقامة الفرضية (الخامسة عشرة) وكذلك الطيبية (الثانية والثلاثين) فى عدد من القضايا الفقهية . ولننظر اليه وهو يناقش فى جواز الرفع والنصب ، وهو يعرف آراء سيبويه وغيره من النحاة ، ويعرف تقدير المحذوف ، ويشرح المنصوب على الظرف وأنه لايخفضه سوى حرف ، ويناقش العامل . وكأنه يرى أن شيئا من علم النحو ضرورى فى المقامات : « نزل النحو فى الكلام منزلة الملح فى الطعام » . ويشرح الحريرى بعد هذا فى صفحات غير قليلة ما جاء فى مقامته هذه من النكت العربية والأحاجى النحوية . وهو يحدثنا فى المقامة الفرضية (الخامسة عشرة) .

افتنا فى قضية حاد عنها
كل قاض وحار كل فقيه
رجل مات عن أخ مسلم حر
تقى من أمه وأبيه
وله زوجه لها أيها الحبر
أخ خالص بلا تمويه

فحوت فرضها وحاز أخوها

ما تبقى بالارث دون أخيه

فاشفنا بالجواب عما سألنا

فهو نص لا خلف يوجد فيه

ويمضى بنا القصاص فى فتواه وكأن المقامة كتبت لاستعراض هذه المعارف الفقهية . وهو يناقش فى المقامة الثانية والثلاثين أشياء كثيرة عن الوضوء والسجود والصلاة وشروط ذلك وما يتعلق بذلك من تفاصيل فقهية ولكنه لا يعرض هذا بألفاظ سهلة بسيطة واضحة الدلالة ، بل يستخدم مثلا كلمة « الثعبان » جمعا لثعب بمعنى مسيل الوادى ويستخدم كلمة النعل بمعنى الزوجة « ما تقول فيمن توضأ ثم لمس نعل زوجة ؟ » . وهو يعرض هنا ما عنده من معرفة لغوية وفقهية عرضا متعمدا .

ولننظر بعد هذا الى البناء الداخلى للمقامة ، لنلاحظ أن المقامة تتألف من وحدات أساسية وعبارات تربط بين هذه الوحدات الأساسية . وهذه الوحدات هى الهدف الحقيقى من تأليف المقامة ، وتضم نثرا فنيا كما تضم قصائد ومقطوعات شعرية ، وما نظن عبارات الربط الا وسائل حاول بها كاتب المقامات أن يربط هذه الوحدات ربطا بارعا .

فالمقامة تبدأ بمقدمة قصصية بسيطة على لسان الراوى المؤلف ، ولننظر فى المقامة الأولى لنجده يحدثنا عن

غربته فى صنعاء وعن رغبته فى لقاء أديب فكان أن التقى به ، ثم وصف لنا هذا اللقاء ، وهنا تأتى الوحدة الأساسية مقطوعة وعظية على لسان أبى زيد السروجى :

أيها السـادر فى غلوائه ، السادل ثوب خيلائه ، الجامح فى جهالاته ، الجانح الى خزعبلاته ، الام تستمر فى غيك ، وتستمرئ مرعى بغيك ، وحتام تتناهى فى زهوك ، ولاتنتهى عن لهوك ، تبارز بمعصـيتك ، مالك ناصيتك ، وتجترئ بقبح سيرتك ، على عالم سريرتك ، وتتوارى عن قريبك وانت بمرأى رقيبك ، وتستخفى من مملوكك ، وما تخفى خافية على مليكك ، أتظن أن ستنفعك حالك ، اذا آن ارتحالك ، أو ينقذك مالك ، حين توبقك أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، اذا زلت قدمك ، أو يعطف عليك معشرك ، يوم يضمك محشرك ، هلا انتهجت محجة اهتدائك ، وعجلت معالجة دائك ، وفللت شباة اعتدائك ، وقدعت نفسك فهى أكبر اعدائك ، أما الحمام ميعادك ، فما اعدادك ؟ وبالمشيب انذارك فما اعذارك ؟ وفى اللحد مقيلك فما قيلك ؟ والى الله مصيرك فمن نصيرك ؟ طالما أيقظك الدهر فتناعست ، وجذبك فتقاعست ، وتجلت لك العبر فتعاميت ، وحصحص لك الحق فتماريت ...

وبعد أن انتهى أبو زيد من هذه المقطوعة التى شغلت أكثر من نصف مقامة ، تأتى عبارة ختامية تقول : « فلما رنت الجماعة الى تحفزه ، ورأت تأهبه لمزايلة مركزه ،

أدخل كل منهم يده في جيبه ، فأفعم لها سجلا من سيبه .
وقال اصرف هذا في نفقتك أو فرقه على رفقتك .. » .
بعد أن ينتهي هذا القسم من المقامة : بمقدمته وبوحدته الأساسية وبخاتمته ، نجد الحريري يمهد لمقطوعة شعرية يود ذكرها بقصة طريفة ، مؤداها أنه تبعه الى حيث يقيم فوجده على خبز سميذ وجدي حنيذ ... و .. خابية نبيذ فقلت له : أيها هذا أيكون ذاك خبزك وهذا مخبرك . وبعد هذا تأتي المقطوعة الشعرية :

لبست الخميصة أبغي الخبيصة
وأنشبت شصي في كل شيصه
وصيرت وعظي أحبولة
أريغ القنيص بها والقنيصة
والجأني الدهر حتى ولجت
بلطف احتيالي على الليث عيصه
على أنني لم أهب صرفه
ولا نبضت لي منه فريصه
ولا شرعت بي على مورد
يدنس عرضي نفس حريصه
ولو أنصف الدهر في حكمه
لما ملك الحكم أهل النقيصه

وتنتهي المقامة الأولى بالتعرف عليه .
هذا والحوار في المقامات محدود وقليل وناقص

ولا يانى الا تقدمه لنص أو لشعر ، ومن الحوار البسيط نجده فى هذه المقامة قبيل ختامها :

ثم قال : أدن منى فكل ، وان شئت فقم وقل

فالتفت الى تلميذ وقلت : عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى لتخبرنى من ذا ؟ .

فقال : هذا أبو زيد السروجى سراج الغرباء وتاج الأدباء .

« فانصرفت من حيث أتيت وقضـــيت العجب مما رأيت » .

وســـائر المقامات لا تكاد تخرج عن هذا النمط ، فالوحدات الأساسية نثرية وشعرية هى أركان المقامة . أما عبارات الوصف تقديما أو تعليقا فتأتى لتخدم الأركان الأساسية .

هذا وتأخذ محاولة استعراض المقدرة اللغوية والبراعة فى استخدام الصيغ فى بعض المقامات لونا غريبا من اللعب باللغة ، وكأن اللغة ليست وسيلة لنقل فكرة أو ايحاء . فالمقدرة المغربية (السادسة عشرة) حافلة باللعب باللغة ، ولنقرأ البيت الأول من المقطوعة الشعرية :

أس أرمـلا اذا عرا   وارع اذا المرء أسـا

لنلاحظ أن البراعة فى هذا البيت أن حروفه من اليمين هى حروفه من اليسار ، وكأن الحريرى يتصور أن هذا البيت يقرأ من اليمين ومن الشـمال ، وكأن اللغة

العربية قد اقتصرت على الصوامت ، ولم تعد فيها حركات ، ولكن براعة الحريرى شاءت أن تتيح فرصة اللعب باللغة ويبدو لى أنه ألف القطعة الشعرية أولا ثم أعد لها المقدمة النثرية المناســـبة والتعليق النثرى المناسب ، حتى تبدو وكأنها فى سياق حديث غير مفتعل ٠

وهو في المقامة السابعة عشرة يتوسل أيضا باللعب اللغوى ، ففى هذه المقامة القهقرية ، يورد فقرة نثرية غريبة ثم يعقب عليها قائلا : هذه مائتا لفظة تحتوى على أدب وعظة فمن ساقها هذا المساق فلا مراء ولا شقاق ، ومن رام عكس قالبها وأن يردها على عقبها فليقل الأسرار عند الأحرار ٠٠ وهذه الرسالة التى : « أرضها سماؤها وصبحها مساؤها » قد كتبت على نحو تقرأ به من أول كلمة الى آخر كلمة أو من آخر كلمة الى أول كلمة ، وكأن هدف المؤلف هو مثل هذه الألاعيب اللغوية ، التى أعجب بها معاصروه أيما إعجاب !! انها حقا « المقامة القهرية » ٠

وفى المقامة الرقطاء نجد لعبا بالحروف العربية ، لم ينظر الحريرى أن الكتابة مجرد رمز للتعبير عن اللغة كظاهرة صوتية منطوقة مسموعة ، وانما حاول أن يظهر براعته ومقدرته اللغوية بأن يؤلف رسالة رقطاء ، وتتوالى حروف كلماتها حرفا منقوطا وحرفا غير منقوط وكأن لنقط الحرف أو لعدم نقطه سرا فنيا أو دليلا بلاغيا ، ولنقرأ فى هذه المقالة قوله : « أخلاق سيدنا تحب ، وبعقوبته يلب ،

وقربه تحف ، ونايه تلف ، وحلقه نسب ، وقطيعته نصب »
... (المقامة السادسة والعشرون) .

وهكذا حققت المقامات تراكمات من السجع والجناس والطباق وحشدا من المعارف النحوية والفقهية واستعراضا للمعارف اللغوية ولعبا بأشكال الحروف العربية ، فحقق بها ما اعتبرته قرون متعاقبة نموذجا نثريا رائعا . يقول العماد الأصفهاني في الخريدة : « ان وشي بلاغة الحريري ذهبي الطراز سحباني الاعجاز ، قسي الاسهاب والايجاز ، ومتى قدر قس على ترصيع كلمة وتصريع حكمه ، حريري الوشي ، عراقي الوشم ، لؤلؤي النظم ، كلامه يتيمة البحر وتميمة البر » وقال عنه ياقوت : « لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب اليه فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة واتسعت له الألفاظ وانقادت له نور البراعة حتى أخذ بأزمتها وملك لبقتها فاختار ألفاظها وأحسن نسقها حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يرد قوله ولا يأتي بما يقاربها فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت بعد ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » (٢٦٧/١٦) .

ثالثا : المقامات بين الشروح والترجمات :

كانت شهرة المقامات سببا في اهتمام كثير من الشراح بها . وكأنها كتبت لتكون متنا يتعاقب عليه الشراح

بالتعليقات اللغوية وآراء النحاة وبإيضاح الأمثال الواردة فيها وتفسيرها وباستخراج ما بها من تجنيس وتشبيه واستعادة واشارة وايماء وتلويح وغير ذلك مما اهتم به البديعيون ، وكانت مجالا لشروح عديدة ، وكانت كذلك مجالا لنقدها وللاستدراك عليها ، فقبل ان يمضى وقت طويل على وفاة الحريرى (ت ٥١٦) كان عبد الله بن الخشاب (ت ٥٧٦) قد ألف كتابا بعنوان : الاستدراك على مقامات الحريرى ، فانبرى اللغوى ابن برى (٥٨٢) للرد عليه والانتصار للحريرى · (طبع هذا الرد فى استانبول والقاهرة) ، وبعد ذلك علق عليهما موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (ت ٦٢٩) بكتاب سماه : الانتصاف بين ابن برى وابن الخشاب فى كلامه على المقامات ، وهكذا دارت حلقة التأليف حو المقامات ·

أما أقدم الشروح التى ألفت على مقامات الحريرى فهو شرح معاصرة الفنجديهى (البندهى ، انظر ياقوت ٢٦٢/١٦) وهذا الشرح الذى ما يزال مخطوطا يعتبر أقدم شرح وصلنا اليه على مقامات الحريرى ، وقد توفى مؤلفه سنة ٥٤٨ م · وتوالت بعد ذلك الشروح ، وقد وصلنا عدد كبير منها ، ذكرها بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى · لقد شرح المقامات كل من عبد الباقى الأنبارى (ت ٥٩٠ هـ) ونصر الدين المطرزى (ت ٦١٠) ، وعبد الله بن الحسين العكبرى (ت ٦١٦) وصدر الأفاضل الطرائقى (ت ٦١٧) ، (والشريشى ٦١٩ ــ ط بالقــاهرة) والتفتـــازانى

(ت ٧٩٢ بخط المؤلف في ليدن) وأبو جعفر الباغني ، وابو عبد الله السجلماسي ، وغيرهم . ومعظم هذه الشروح وصلت الينـــا في مخطوطات مختلفة ، وكلها يدل على اهتمام بعيد المدى بمقامات الحريري .

وترجمت مقامات الحريري في القرن السابع الهجري الى اللغة العبرية . وقام بهذه الترجمة في الأندلس يهوذا بن سليمان الملقب بالحريري ، وقد زار الحريري المشرق العربي دارسا ثم أعمل فكره في ترجمة مقامات الحريري الى اللغة العبرية ، وألف بعد ذلك مقامات عبرية حاكى فيها الحريري فكانت مقاماته عربية الفكر والأخيلة (٧) . وكانت مقامات الحريري معروفة كذلك في ايران ، ويذكر الباحث ريبكا أن عـــددا من المؤلفين الفرس حاولوا التأليف على منوالها ، ومنهم قاضي حميد الدين (ت ٥٥٩) ، ومنذ أكثر من قرن طبعت ترجمة فارسية لمقامات الحريري (لكنو سنة ١٢٧٣) ولاحظت الباحثة كويتشكوفا (أنظر ريبكا ـ تاريخ الأدب الايراني ـ بالألمانية) أثر المقامات في الأدب الفارسي الحديث ، وخصوصا في فن الرواية . وترجمت مقامات الحريري في أواخر القرن الماضي الى اللغة التركية كذلك (ط استانبول ١٢٩٠) ، ولم تقتصر ترجمة المقامات على

---

(٧) J. Schirmann : Die hebraische Uebersetzung der Magamen des Hariri, Frankfurt, 1930. Pereikowitsch : Al-Harizi, als Ueber, etzer der Magamen al-Hariris, München 1931 : Rückert Die Verwandtungen, 1826. Kühnel : Islamische Klein-kun t, Berlin, 1925, p. 41.

اللغات الشرقية ، بل ترجمت الى عدد من اللغات الأوربية .
كان المستشرقان رايسكة (١٧١٦ ــ ١٧٧٤) وشيولتنس (١٦٨٦ ــ ١٧٥٠) قد ترجما قسما منها الى اللغة اللاتينية ، فمهدا السبيل أمام دي ساسي (١٧٥٨ ــ ١٨٣٨) ليعمل على تحقيق النص . هذا ولابد وأن نشيد فى هذا الصدد بالترجمة الممتازة التى أعدهـــا الأديب الألمانى . ريكرت (١٧٨٨ ــ ١٨٦٦) فهى تعبق بالشذا العربى وبنغمات السجع العربى وبكل ما هو غير مألوف فى الآداب الأوروبية الحديثة من محسنات بديعية ، لقد نقل ريكرت مقامات الحريرى الى اللغة الألمانية * نقلا رائعا فأصبحت علما عليه وأتاحت للحريرى عند قراء الألمانية مكانة وتقديرا .

وهكذا أتيح لمقامات الحريرى ما لم يتح الا للقليل من المؤلفات : شرحا وتعليقا ، ترجمة وتقليدا ، فهل كانت المقامات حقا ذلك النموذج الذى التقت فيه كل التقاليد الفنية فى النثر العربى على ذلك النحو الأخاذ ؟ لقد اختلف الذوق الحديث عن كثير مما جاء به الحريرى ، ولكن يكفى هنا أن نقول ان مقامات الحريرى راقت الكثيرين ، ثم ألهمت آخرين ، فشغلت المئين : مصورين * ومترجمين وباحثين .

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٠٠٣

ISBN — 977 — 01 — 3855 — X

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتا